الحوار مع الآخر وعوائقه في ظل المتغيرات الدولية المعاصرة

أ.د.عبد الله بوجلال

عميد كلية الشريعة وأصول الدين والحضارة

- جامعة الأمير عبد القادر-

تمهيد:

احتل موضوع الحوار مع الآخر في العقود والسنوات الأخيرة حيزا كبيرا من جهود وانشغالات الباحثين والدارسين وبعض السياسيين ورجال الدين شرقا وغربا، لكن هذا الانشغال لم يلق صدى كبيرا لدى معظم القادة السياسيين والإعلاميين في الدول الغربية الكبرى، ولم يكن له تأثير كبير في محتوى أجهزتها الإعلامية وخطابها الديني والسياسي والثقافي مما جعل عالمنا المعاصر يشهد مؤشرات صدام ثقافي وديني ويعيش صداما عسكريا وإعلاميا وسياسيا، خدمة لمصالح وأهداف القوى المالية والتجارية والسياسية والإعلامية وبعض رجال الدين المتعصبين في الجهة الشمالية الغربية من الكرة الأرضية، بينما تتعرض المنطقة العربية والإسلامية إلى تشويه متعمد لماضيها وحاضرها، وتعطيل لمستقبلها ولتنميتها واستكمال تحررها، وانتقاص لسيادتها واستغلال ثرواتها وهضم لحقوقها المشروعة في الدفاع عن أرضها المحتلة، والاستقلال في قراراتها السياسية والعيش ضمن نمطها الحضاري والثقافي الإسلامي، مع الانفتاح الإيجابي على الحضارة الإنسانية المعاصرة بالاستفادة من إيجابياتها الكثيرة: العلمية

والإدارية والثقافية والتقنية والاقتصادية، ورفض العناصر الثقافية والسلوكية السلبية التي تتسم بها حياة المجتمعات الغربية التي ازدهرت فيها هذه الحضارة المعاصرة.

لهذا نجد أن الحوار الإيجابي بين مجتمعاتنا العربية – الإسلامية والمجتمعات الأخرى، خصوصا الغربية منها، ضروري جدا للأمن والسلم والتنمية والصداقة والتعاون المتكافئ بين مختلف الشعوب والبلدان، وأن هذا الحوار يتطلب توافر بعض العوامل والشروط من أهمها الآتي:

تكافؤ الفرص والقوة ومستوى التنمية بين طرفي الحوار وهذا غير متوفر الآن لدينا.

إحجام الدول الكبرى الغربية عن التدخل في شؤوننا الداخلية والعدوان على أوطاننا وتأييد احتلال أراضينا، والتنكر لحقوقنا في تحرير تلك الأراضي وهذا هو الغالب الآن

امتناع تلك الدول الغربية عن الكيل بمكيالين في معالجة القضايا الدولية، والانحياز لإسرائيل ضد ضحايا سياساتها العنصرية والاستعمارية.

توقف تلك البلدان الغربية الكبرى عن إثارة النزاعات والقلاقل والأحقاد والفتن في أوساط شعوبنا وأقطارنا، كما يحدث حاليا في لبنان والصومال والسودان والعراق والجزائر... وغيرها.

التوقف عن الإساءة إلى رموزنا الدينية والحضارية وتشويه عقيدتنا الإسلامية وتاريخنا وحضارتنا.

إقامة علاقات اقتصادية وتجارية وعلمية وثقافية تخدم مصالحنا ومصالح الدول الكبرى الغربية وليس العكس.

ومن المعلوم أن توفير هذه العوامل والشروط مرتبط أساسا بنا نحن العرب المسلمين أكثر ما هو مرتبط بالطرف الآخر، فلو وجد هذا الطرف إرادة موحدة وجادة لدينا لوافق على ذلك وعدل الكثير من سلوكاته وسياساته المناهضة لنا ولقضايانا ولرموزنا الدينية والحضارية، ولا انعكس كل ذلك في خطابه الديني والسياسي والإعلامي، ولما شاهدنا هذا التوظيف المحموم لأجهزته الإعلامية والدعائية القوية لاستهداف أقطارنا وشعوبنا وتشويه ثقافتنا وعقيدتنا ونمطنا الحياتي والحضاري، وشن حرب دعائية ونفسية ضدنا، واختلاق الوقائع والمشكلات وإثارة الفتن والاضطرابات والحزازات الطائفية والمذهبية بين أفراد شعوبنا وبين أقطارنا أيضا.

ولذلك نرى أن هذه العوامل وفي مقدمتها أساليب توظيف الإعلام الغربي المعاصر تشكل عوائق الحوار مع الآخر حاضرا ومستقبلا، إذ لا يمكن إجراء حوار فعال وناجح مع طرف يناصبنا العداء في كل شيء ويقوم بغزو أراضينا ويتنكر لحقوقنا المشروعة في التحرر والسيادة والبناء، والاستفادة من منجزات العلوم المعاصرة وفي مقدمتها استغلال الطاقة النووية في الأغراض السلمية، واستثمار ثرواتنا لصالح شعوبنا وترشيد استغلالها... الخ. كما أن من أهم عوائق الحوار مع الآخر بقاء عالمنا العربي الإسلامي متخلفا في جميع المجالات ومنقسما على نفسه ويتآمر مع الآخر في ضرب بعضه واحتلاله أو الانتقاص من سيادته... الخ.

قبل التطرق إلى هذه العوائق والعقبات التي تقف في وجه الحوار مع الآخر في ظل المتغيرات الدولية المعاصرة ينبغي إبراز العناصر الآتية المتعلقة بالموضوع باختصار:

مفهوم الحوار، أي حوار نقصده؟ الديني أم الثقافي أم الحضاري أم السياسي، مكانة الحوار في الإسلام، شروط إتمام الحوار.

أولا: مفهوم الحوار:

الحوار نمط من أنماط التفاوض والتحاور المتعدد الأطراف والأعراف في آن واحد، والحوار في اللغة يعني التحاور والمجادلة [1]، فحوار بالكسر وحيرة، وحويرة معناه مراجعة النطق[2]، وتحاوروا تراجعوا الكلام بينهم. فالحوار معناه: التراجع في الكلام بين طرفين، قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ﴾[3] وأراد به معنى الخطاب أو التخاطب وهو على التغليب وأصله مراجعة الكلام، وأحار عليه جوابه: أي رده، والمحاورة بالمجاوبة والتجاوب[4]، ويؤدي هذا إلى أن كل طرف يلقي كلامه يعد جوابا بصاحبه كالأخذ والردف بالكلام، ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ﴾[5]، ويقال: القوم حاور بعضهم بعضا.

ويوصلنا معنى الحوار اللغوي إلى شيء متولد، فالكلام الذي يدور بين اثنين على سبيل التفاهم والوصول إلى الهدف المنشود يسمى الحوار، وربما يتطور الحوار إلى طريق مسدود، وهذا يدخل ضمن المجادلة من أجل الغلبة لا الإقناع، وقد يدخل في المجادلة الحسنة، وهذا يرجع إلى معنى الحوار الموصل للإقناع [6]، كما قال تعالى : ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [7].

وأما معنى الحوار الديني فهو خطاب الأطراف المنتمين لديانات وعقائد مختلفة بعضهم للبعض الآخر يعبّر فيه كل طرف عما تتضمنه شريعته من مبادئ وأسس لخدمة الإنسانية جمعاء، وتحقيق السلام والعدل والمساواة وحقوق الإنسان دون الخوض في التفصيلات العقائدية المعنية بعلاقة الإنسان بربه. [8]

من الممكن تفسير حوار الحضارات والثقافات من خلال صور مصنوعة ومستويات عدة، ومن شأن التقدير الدقيق في مفهوم الحوار أن يتيح لنا مدخلا صحيحا إلى الموضوع [9]...، لنفترض أن مفهوم الحوار فلسفيا ونظريّا واضح لا يحتاج إلى مقاربة، لكن للحوار معنى حقيقيا وآخر مجازيا، ويمكن أن نأخذ كلا المعنيين بعين الاعتبار في الدعوة إلى الحوار إذ أن تنظيم الاجتماعات من أجل تبادل وجهات النظر حول موضوعات مختلفة، يمثل أحد مصاديق الحوار، كما أن شتى الجهود في مجالات الثقافة والفن والعلوم والآداب هي من مصاديق الحوار أيضا... حسب تعبير محمد خاتمي، غير أنه حوار في ضوء الجانب المجازي من دلالة المفردة. فالتدقيق في مفهوم الحوار بدلالته الحقيقية، كما يقول محمد خاتمي، يستتبع دخولا في مجالات لا تتوفر في الدائرة الإستعارية والمجازية من الدلالة [10].

ويتطلب الفهم المجازي للحوار الحضاري تقديم مفهوم للثقافة والحضارة والإنسان بما يتناسب مع حوار الحضارات، وهو ما يكون معبرا عن تأكيد واهتمام خاصين بالبعد الجماعي لوجود الإنسان، أي الاهتمام بالجانب العام في الحضارة والثقافة والذي تزول عنده الحدود والفواصل. ويقترن ذلك بتأكيد أنه ما من حضارة أو ثقافة كبيرة قد تكونت وتشكلت وحدها في ناحية معزولة دون أن تتأثر بالآخرين، الأمر الذي يعني أنه لم تتمكن أي حضارة أو ثقافة من البقاء والديمومة سوى تلك التي امتلكت مؤهلات التأثير المتبادل، والحوار بما فيه من حديث وإنصات للآخر. إذ أنّ حوار الحضارات يتطلب أن ننصت للآخر كما نتحدث إليه بالضبط ، فالإنصات فضيلة علينا أن نتحلى بها[11].

ثانيا: مفهوم الحوار في الإسلام:

يحترم الإسلام العقل ويؤكد على الاجتهاد، لذلك فهو دين الحوار، فالقرآن نفسه مارس هذا الحوار، كما أكدته منهجيته الاستدلالية التي ما كانت تؤكد أو تبطل فكرة إلا

على أساس من العقل والقناعة الذاتية، دون نسيان رفض الإسلام للجدال المفزع والمشوش القائم على الأساليب الملتوية والذي يهدف إلى إثارة الفتنة[12].

فالحوار مصطلح قرآني ، فقد ورد ثلاث مرات ، اثنتان في سورة الكهف في معرض الحديث عن صاحبي الجنتين وتحاورهما ﴿ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً ﴾[13] ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴾[14] والثالثة في المجادلة : ﴿ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ﴾[15].

وإذا كان القرآن قد استعمل مصطلح الحوار ثلاث مرات، فقد استخدم مصطلح الجدل 27 مرة كقوله تعالى: ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾[16]، وهو يتضمن معنى الحوار ولكن الذي يقع في مناخ الخلاف الفكري والعقائدي، مما يجعل الحوار أوسع مدلولا من الجدل ، لتضمن الجدل معنى الصراع، مما يجعل الحوار يسعه ويسع غيره، ومما يهدف إليه الحوار ، الدفاع عن الفكرة ضد تحديات خصومها، أو طرحها دون وجود تحدي . وبالحوار نستطيع إنشاء جبهتين إحداهما ضد الفهم السيئ للإسلام ، والأخرى ضد الشبهات التي يثيرها الغير حول الدين الإسلامي . وفي كل هذا يقوم الحوار على الحجة والمنطق والعلم والقيم ونبذ التعصب بغية الوصول إلى الحقيقة [17].

إن الإسلام يقر بمبدأ الحوار فكرا وعملا، بل أنه بدأ حركته من موضع الحوار في اتجاهين: يرتبط أحدهما بحركة الدعوة في أفكار المعاندين والرافضين لها، ويرتبط الاتجاه الآخر بحركة الدعوة في الحياة ، من حيث إفساحها المجال للطريقة العقلية في التفكير لتأخذ طريقها إلى الجانب الفكري في الحياة ، أي هو حوار على المستوى النظري العقلي لينعكس هذا النظر على المستوى العملي السلوكي[18] .

كذلك الحوار في الإسلام، حوار داخلي مع الذات وحوار خارجي مع الآخر للتعريف بالذات الإسلامية، ثم الدعوة لها، وهو حوار أساسه الحجة، قال تعالى: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ "[19]، ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ [20] .

وحوار الحضارات والأديان ليس جديدا بالنسبة للمسلمين إذ توجد خبرات تاريخية تعينهم على هذا الحوار، فمهما كانت التسميات التي أطلقت على حركة التفاعل في العصر العباسي أو في الأندلس ، لكن الجدّة تكمن في أنه بات أقرب إلى العملية الإرادية الواعية التي يرى فيها دعاتها والساعون إلى سبيلها ردا على منطق التصادم والحدود الدامية ، ووسيلة إغناء متبادلة بين طرفين أو أكثر ضمن الحق في التمايز والاختلاف [21] .

وعندما نرجع إلى المضامين الفكرية للإسلام، نجد أن المرونة التي انطوى عليها ساهمت في تفعيل مبادئه وأكسبته قدرة على استيعاب المعطيات التي أفرزتها الحضارات البشرية ، فاحتل بذلك موقعا حضاريا متقدما[22].

إن الخطاب القرآني والحوار فيه له أساليبه المتعددة ، لذا نجد فيه الاستعمالات متعددة، إذ كل أسلوب له مدلوله وبما يصوره لنا من خلال الواقعة، فنجد كلمة الحوار لها استعمالات كلها تفيد وجود طرفين في الحوار يشتركان فيه، فتارة يكون في الخلاف والتنازع، وتارة يستعمل بين متضادين، ليدل هذا الاستعمال على وجود طرف محق وآخر مبطل، فوجود الحوار واستعماله ضرورة مشروعة ليصحح المفاهيم المنحرفة أو الخاطئة، ويردها إلى جادة الصواب.

وربما يتوسع استعمال الحوار بطريقة مضافة مستنبطة من الجدال أو المجادلة، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[23] والاستقراء لهذه الكلمة واستعمالها في القرآن يفضي بنا إلى تناولها في كل المواضع على التغليب لإظهار الحق الذي أراده الله عز وجل، ولهذا نجد أن القول حوار، والجدل حوار، وأنواع الخطاب حوار، مفاده إظهار الحق ليعمل به، وليبصر الإنسان ليصل به إلى العمل السوي الموافق للشريعة الإسلامية [24].

فالحوار في الإسلام منهج اتبع في الإنتاج الحضاري للأمة المسلمة وطبع صيغها الفكرية، خاصة في فترات ازدهارها وانفتاحها، ويعد الانفتاح والتعامل مع الآخرين مبدأ أساسيا لأي إنتاج حضاري إنساني ذي أبعاد عالمية [25] " حيث تنفتح الحضارة وتطلع على مبانيه الفكرية ومبادئه العقائدية ويتم التفاعل بين الثقافتين ليكتسب كل منهما من الآخر بقدر قوة تأثير الأول وتقبل الثاني، وهذا ما رسته الحضارة الإسلامية حينما انفتحت على ثقافات الحضارات" [26]، وطبعا يستحيل أن يتوفر أي انفتاح وتقبل من وإلى الإسلام دون المرور بعملية الحوار أولا، لأن هذا الأخير هو المحرك الفعال في حركة التبادل الحضاري والذي يفقد حيويته ويتسم بالجمود والتخلف كلما نهج الانغلاق والتعصب الفكري، لهذا تبنى الإسلام مبدأ الانفتاح ضمن إستراتيجية في العمل الرسالي، وبعد أن ثقف معتنقيه على تبني منهج الحوار من خلال صياغات عقدية ومقولات قيمية في إطار المبادئ الإسلامية ساهمت في إعادة تشكيل عقل الفرد المسلم فأنتجت عقلا ليس من خصائصه التشبث في دائرة الذات والتنقل في حدود الأنا [27].

وهذا الانفتاح يجب أن يشمل كل أنواع الإنتاج الفكري والثقافي والنشاط البشري عموما، ولا يجب أن يقتصر على أحدها دون الآخر، لكنه يصبح ضروريا عندما يتعلق

بقضية الدين لأن كل ثقافة أو حضارة تتطبع بالدين الصادرة عنه، وما سجله القرآن العظيم لا يتحمل تأويلا ولا يعرف مجازا فالقرآن بقوله: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ... ﴾ قد أثبت للبشرية الحرية الدينية وأن الإيمان قضية باطنية لابد أن يكون عن اختيار مبني على الإدراك وهذا هو أساس الحوار مع الأديان الأخرى.[28]

و لا يغيب عنا كما يقول محمد إبراهيم الفيومي:"أن هذا الحوار هو من مناهج الإسلام فكريا، نظريا، وعلميا، نظريا يظهر: حين عرض القرآن قضاياه العقدية الإلهية، كذلك عرض مقابلها قضايا العقائد غير الإلهية ، وفي حوار بليغ إطاره الحسنى: فهما ، وقولا، وفعلا، بين أصول الدين الإلهي وأصول الدين الوثني ، في غير حرب كلامية "باردة"، أو حرب سيف "ساخنة"، ودون عناء في الخصام، أو تعنت في الحوار، وعلميا: عندما عدّ علماء الإسلام: أشياء وقيمًا ليست من فعل الرسول ﷺ، أو قوله، ولكن ما رضي عنه من سنته وذلك عندما عرفوا سنته بأنها قوله، أو فعله، أو تقريره يكفي أنه أقرها سواء أكانت من قومه ذوي الجاهلية أم غيرهم، فلا وصفهم بالجاهلية نفره منها، ولا بعد غيرهم عن عصبية قومه عزفه عنها، إنما هي الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها ﷺ[29].

ولذلك، فإن الأصالة الإسلامية تتميز بالانفتاح على الواقع في سبيل تفعيله وتحريكه، فهي تلتصق التصاقا كبيرا بالمجتمع (العصر) من أجل توجيهه حسب أوضاعه الثقافية والتاريخية [30]. فالعصرنة الحقيقية الفاعلة هي التي تأتي عبر الأصالة التي تحرك في المجتمع كل العوامل والعناصر التي تخلق الأمة الفعالة والمؤثرة والشاهدة ، والأصالة هنا لا تعني العودة "بالمعنى الزمني". وإنما تعني الأخذ بنمط حضارة يمدنا بالقوة والمعرفة وقادر على تحقيق الطموحات الحضارية. للأمة فالإنسان المؤمن أو الحركة الإسلامية لا

تطلب الماضي لذاته وإنما من أجل إعادة الأصول والعقائد والقيم التي صنعت الماضي المجيد، إلى الحضارة والانطلاق بها إلى المستقبل، أي أن الماضي الإسلامي يشكل لنا خريطة ثقافية، سياسية اجتماعية متكاملة شاملة، ونظرة الإسلام إليه تحوله إلى قوة دافعة لتحقيق المزيد من الأمجاد والازدهار والتقدم [31].

وأخيرا إن الأصالة مطلب حضاري باعتبارها الإطار المرجعي والروحي والأخلاقي والمعرفي للعالم العربي الإسلامي، كما أنها لا تعني تفكير الماضي بل هي بعيدة عن الحاجة إلى التعريف بالذات، وتحديد العلاقة مع الآخر الحضاري، إنها مقاومة ذاتية للهيمنة والتحلل والسلبية، وهي عامل توازن يمنع المجتمع من التحول إلى ورقة في مهب الريح. فالأصالة نمط ثابت للتفاعل المستمر مع الواقع والعصر لأن التقدم والرقي لا يأتيان من فراغ وإنما يعتمدان على قيم وتاريخ، وينطلق بهذه القيم والنماذج من أجل التقدم والتطور والأصالة ليست رصيدا تاريخيا فحسب، وإنما الإرادة والقدرة الذاتية على الإبداع [32].

وحين نتحدث عن حوار الحضارات فإننا لا نريد بذلك ما هو موجود على الأرض فعلا من الحضارات، بل نعني به الأسس والمبادئ التي قامت عليها الحضارة. فالحضارة - حسب محمد خاتمي- " شأن بشري يمثل إجابة عن أسئلة الإنسان وتلبية لاحتياجاته ، وهي أسئلة وحاجات تتجدد باستمرار وحين تنتهي الحضارة ويأفل نجمها فإن ذلك يعني نهاية عصر تلك الأسئلة والحاجات التي كانت الحضارة تجيب عنها وتتولى تلبيتها " [33] وتقع الأسئلة وإجابتها وما تتناوله من احتياجات في نطاق الشأن البشري ، ونجد أن ثمة خطأ يمكن الوقوع فيه حين نعتبر الدين الإسلامي مساويا للحضارة الإسلامية، وحيث إنّ عصر الحضارة هذه قد انقضى فإن النتيجة هي انقضاء الإسلام.

ومما لا شك فيه خلود الدين والوحي الإلهي: بمعنى أنه في وسعهما خلال شتى العصور تقديم إجابات حيال أسئلة الإنسان وحاجاته المتجددة باستمرار. وإذا تحققت للعالم الإسلامي اليوم عودة إلى الذات فإن ذلك يملي عليه أن يعثر على إجابات مناسبة ويعرض مشروعا جديدا في ضوء أسئلة العصر ومتطلباته[34].

ولكي يكون العالم الإسلامي مستعدا لحوار الحضارات فلابد في الدرجة الأولى من تقديم اجتهادات جديدة فيما يتصل بالهوية وفي مختلف مجالاتها الثقافية والمدنية، لا في دائرة الفقه والكلام والفلسفة والتفسير وحسب، وإنما لابد من الاجتهاد في سائر فروع الفكر الديني وتشعباته [35].

شروط الحوار:

للحوار شروط ومبادئ ينبغي مراعاتها لإدامته وتعميم فوائده على جميع أطرافه بما يحقق السلم والعدل والمساواة والتفاهم بينهم وذلك كالآتي[36]:

أ- يقوم الحوار على أساس التوازن في المصالح، فالجميع يجب أن يدرك أن الحوار مع الآخر ينطلق من مجموعة مصالح متوازنة وأنه غير خاضع لأي لون من ألوان الذل والضعف بل على العكس من ذلك، فإن الحوار بقدر ما يحقق له منافع ومصالح يحقق للآخرين بنفس القدر نفس الحقوق والمنافع والمصالح، فهذه المصالح المتوازنة هي التي تخلق مناخا من التفاهم المشترك.

ب- يتحقق الحوار حين تتكافئ أطرافه وبدون هذا التكافؤ لا يكون الحوار ناجحا ، أو لا يكون إطلاقا .

ج- لا حوار في العقيدة، فالكل مطالب باحترام عقيدة الآخر .

د- يكون الحوار من أجل البحث عن القيم المشتركة للأديان ، وقد يكون من هذه القيم: العدل والمساواة والسلام والمعيشة المشتركة وحب الخير للإنسانية والشعوب والتنمية المشتركة ، والبحث عن أرضية مشتركة يتم من خلالها التعاون والتحاور.

هـ- الاقتناع بأن الحوار هو البديل الأمثل للمواجهة والصراع والصدام.

و- ينبغي قبول الآخر بكل ما يحمله من خصوصية حضارية وثقافية والتحاور معه والبحث عن منهجه وفهمه.

عوائق الحوار مع الآخر:

يواجه الحوار مع الآخر الحضاري والثقافي العديد من العوائق والتحديات الحضارية والثقافية والعلمية والتقنية والإعلامية ، سنبرز بعضها في الفقرات الموالية ، حسب الآتي:

أولا: الصدام مع الآخر:

يمكننا أن نؤرخ للفكر العربي والإسلامي الحديث، وبحثه عن هويته وثوابته العقائدية والفكرية، ومشروعه النهضوي من خلال علاقاته بالآخر الحضاري – الغرب – المتفوق والقاهر بدءا من حملة نابليون بونابرت على مصر (**1798** م). لذلك أضحت أمهات القضايا التي عالجها الفكر العربي الحديث، منذ مطلع القرن العشرين حول مسائل مرتبطة بشكل أو بآخر بموضوع علاقة الأنا والآخر، والخيارات المعروضة تجاه هذه العلاقة: حوار، صدام، تعايش، قبول، رفض مطلق، توفيقية، انتقائية [37].

وفي هذه الفترة من الزمن، وبعد سقوط المعسكر الاشتراكي وانهيار الاتحاد السوفياتي وانتهاء الحرب الباردة، بدأت هذه الأفكار الثنائية تطرح في الساحة الدولية تحت عنوان "الإسلام والغرب" وقد كان لنظرية "صموئيل هنتغتون" "صدام الحضارات " والتي محورها أن الصراع في المستقبل سيكون بين الحضارات في المقام الأول ومن المرجح أن يصبح المحور المركزي في السياسات العالمية والصراع بين الغرب والحضارات الرافضة للهيمنة والقيم الغربية، ويؤكد هنتغتون على عمق التحدي الحضاري الذي يمثله الإسلام حيث وصفه بأنه أكثر العقائد والديانات صرامة... ويشير إلى أنه في الوقت الذي اختفى فيه الانقسام الأوروبي الإيديولوجي بين الرأسمالية والشيوعية ، فإن الانقسام الأوروبي الثقافي بين المسيحية والكاثوليكية والأورثدوكسية من ناحية والإسلام عاد للظهور ثانية في تلك القارة، فالصراع بين الحضارتين الغربية والإسلامية مستمر منذ (13 قرنا) ولا يبدو أنه في طريقه إلى الزوال، ولذلك شواهده عند الحدود الشمالية للحضارة الإسلامية[38].

فهذه النظرية وغيرها من النظريات والرؤى ما زالت تسعى وتحاول الوصول إلى إجابة نظرية متكاملة حول علاقة الأنا والآخر في الفكر الغربي والفكر العربي الإسلامي.

وأصبحت العلاقة مع الآخر في ظل موجات العولمة المتدفقة أحد الموضوعات الهامة المطروحة على الفكر السوسيولوجي والسياسي على السواء - كما يقول السيد ياسين -والآخر إما أن يكون فردا مختلفا أو مجتمعا مختلفا أو ثقافة مغايرة. ومن هناك تطرح أسئلة خاصة بالعوامل التي أدت إلى تشويه صورة الآخر فردا كان أو مجتمعا أو ثقافة، وما هي الأساليب الفعالة لصياغة صور موضوعية عن الآخر بعيدا عن الصور النمطية التقليدية [39].

والآخر الحضاري ليس عنوانا هلاميا وإنما يعني مجموع القيم والمبادئ الأساسية التي جاء بها الغرب الحضاري، إضافة إلى التجربة التاريخية التي قامت بها شعوب العالم الغربي عموما، انطلاقا من تلك القيم وعملا باتجاه إنزالها في الواقع الخارجي[40]. أما الأنا فهو ليس رقعة جغرافيا بل هو مجموعة القيم الأصيلة، والمبادئ العليا التي جاء بها الدين الإسلامي إضافة إلى الترجمة التاريخية التي قام بها المسلمون على هدي تلك القيم والمبادئ ... فحينما نستخدم "مصطلح الأنا أو الذات فإن المقصود من ذلك هو القيم المعيارية المتعالية على الزمان والمكان مع تجربة إنزال تلك القيم المعيارية المطلقة على الواقع النسبي والمتحرك والمتغير[41] ".

ويمكننا النظر إلى إشكالية الأنا والآخر في الفكر العربي والإسلامي المعاصر من خلال منظورين أساسيين [42]:

1- منظور القيم والتطورات التي يجريها الغرب في فضاءنا على حساب ذاتنا وقيمنا.

2- منظور التطورات العلمية والإنسانية دون المساس بالجانب العقائدي الحضاري.

ولم يقف الفكر العربي والإسلامي المعاصر في وجه المتغيرات والتطورات التي أدخلها الغرب في عالمنا العربي الإسلامي، طالما كانت هذه التطورات في نطاق العلم الوضعي والتنظيم المجتمعي، أما المتغيرات التي تسعى إلى تشويه الأسس العقائدية والأخلاقية للمجتمعات العربية والإسلامية،فقد كان موقفه مختلفا ورافضا، لإنها ضد الذات الحضارية والأخلاقية للعرب والمسلمين[43].

وتكشف لنا التجربة الإسلامية التاريخية بوضوح، بأن الأمة أو المجتمع الذي يتمسك بأسباب العمران الاجتماعي والحضاري يصل إلى غايته، ويصبح مجتمعا

حضاريا، تتوافر فيه كل خصائص مجتمع التقدم.و المجتمع أو الأمة التي تهمل أسباب العمران، وتبتعد عن عوامل الرقي تكون دائما دون الأمم كلها، وتحتاج إلى الآخرين في كبريات الأمور وصغائرها، من هنا، فإن من الضروري الابتعاد عن عمليات الإسقاط المعرفي والإيديولوجي، لأنها لا تؤدي إلا إلى المزيد من تضخيم الذات، وتشويه الآخر، وعدم إدراك حقائقه التاريخية والمعرفية.ولعل هذا هو الخطأ المنهجي الأساسي الذي وقع فيه الآخر الحضاري انطلاقا من منطق الغلبة والهيمنة الذي أدى إلى تسيير وتوظيف كل الإمكانيات والمعارف في سبيل إبادة الآخرين شعوبا وثقافات وحضارات[44]. وقد كان نموذج: "الاحتلال طريق الحضارة" هو أحد المؤشرات الأساسية في هذا السبيل.

إن الآخر الحضاري يتضمن مجموعة من الإنجازات والمكاسب التي لاغنى عنها للإنسان، بمعنى أن الآخر الحضاري ضمن هذا المنظور، نحن بحاجة إليه لتطوير راهننا، وإن من الخطأ الاعتقاد بأن طريق تمكن الأنا الحضارية في الواقع الخارجي ،يمر عبر تدمير الآخر الحضاري. لإننا نقف موقف الاحترام والتقدير والاستفادة من المنجزات العلمية والإنسانية الهائلة التي حققتها الحضارة الغربية في هذا العصر، لذا فإن المنظور السليم الذي ينبغي أن ننظر من خلاله إلى إشكالية الأنا والآخر هو أن الآخر لا يعتبر الشر المطلق الذي ينبغي التخلص منه.وهذه النظرة الموضوعية والواقعية إلى الحضارة الحديثة، هي التي تساعدنا على تحقيق معادلة واعية وعادلة في علاقة الأنا بالآخر على مستوى الفكر والممارسة العملية.وفي مقابل هذه النظرة أيضا نقول:إن الذات لا تعتبر الخير المطلق...لأنها تتضمن أيضا كتجربة تاريخية الكثير من الإخفاقات والإشكاليات والمزالق والمخاطر التي لا يمكن السكوت عنها أو القبول بها[45].

لهذا فمن الخطأ النظر إلى الإشكالية من زاوية الخير والشر ومن زاوية أن ما عندنا خير مما عندهم، وإنما ينبغي أن ننظر إلى المسألة من زاوية أن إصلاح راهننا وتطوير

حاضرنا، لا يتم إلا بالأنا والآخر، حيث لا يمكن لنا أن نبني دولة عصرية،و نخلق مجتمعا حضاريا بعيدا عن مكتساب العصر وإنجازاته،كما لا يمكننا أن نبني الدولة والمجتمع فقط عن طريق الآلات والتطور العلمي. وبالمنجزات الحضارية والعلمية التي صنعها الإنسان في هذا العصر، لذا فإننا نحتاج إلى الذات، لأننا نستمد منها القيم الأصيلة المغروسة في تكويننا النفسي والفكري، كما نحتاج إلى الآخر في تطوره وعلميته والمكاسب الإنسانية الضخمة التي أنجزها.وبهذا فالدعوة السليمة هي عدم الدعوة إلى المواءمة بين الأنا والآخر وإنما الدعوة إلى بلورة الأطر المناسبة للإفادة المتبادلة عن طريق الحوار والمشاركة الفكرية بين الأنا والآخر[46].

ثانيا: تأثير المتغيرات الدولية الجديدة على الحوار مع الآخر:

لقد تغيرت النظرة إلى مسألة الحوار مع الآخر في الوقت الراهن، كانعكاس حتمي للتغيرات والتحولات الدولية في الآونة الأخيرة، التي أثرت تأثيرا مباشرا على منطقتنا العربية والإسلامية ونظرة الغرب للإسلام وعلاقته بالمسلمين، حيث أفرز هذا المناخ حقائق عدة منها[47]:

- أن الساحة الدولية الآن تشجع على العدوانية بين الأديان بمساعدة وتحريض الإعلام الغربي والصهيونية العالمية بصفة خاصة .

- أن فكرة الرفض للآخر أصبحت منتشرة في الوقت الراهن أكثر من الماضي.

- التحول في القيم والمصالح الدولية وانتشار بؤر الصراع العرقي.

- تبدل النظام العالمي الذي كان قائما لعقود طويلة ليحل بدلا منه نظام عالمي جديد على أسس تختلف عن أسس النظام السابق حيث يعتمد النظام الدولي الحالي على: (القوة لاقتصادية، والتقدم التكنولوجي، واقتصاد السوق، والمنافسة الاقتصادية) بدلا لعامل الايديولوجية.

- اختفاء نظام توازن القوة (ثنائية القوة) وتفرد الولايات المتحدة بإدارة وتوجيه الشؤون الدولية وظهورها كقوة أوحد وأعظم في العالم.

- بزوغ العولمة وسيادة الرأسمالية وانتصار الليبرالية، حيث استطاعت العولمة أن تخلق تحديات عالمية تدفعنا إلى عصر جديد له قيم ومفاهيم مختلفة تفرضها ثورة المعلومات والاتصالات.

وقد أسهمت هذه الثورة المعلوماتية والثقافية في تغيير الكثير من الثوابت في حياتنا، وأوجدت واقعا عالميا جديدا يتسم بالاعتماد المتبادل بين الشعوب المحبة للسلام العادل والمؤمنة بمبدأ التعاون من أجل خير البشرية ، خاصة وأن الوقائع أثبتت أن هناك متغيرات أخرى غير الدين هي التي تلعب دورها في إثارة الصراع بين الأنا والآخر، وأن هذا الصراع الديني ما هو إلا نتيجة لتأويل منحرف في ظرف منحرف [48].

وتسعى العولمة إلى أن يصبح العالم الذي نعيش فيه واحدا، غير أن ذلك لا يعني بالضرورة إعادة النظر في التنوع الخلاق ولا في التعددية الثقافية، ومن هنا تثار أسئلة هامة تتعلق بالطرق التي يمكن أن تؤثر من خلالها العولمة على العمليات الحضارية الخاصة بالتفاعل الإنساني والتفاهم المتبادل، وكذلك على طريقة صياغة الخطابات المختلفة ، وهل يمكن اعتبارها نقطة التقاطع بين الحضارات؟ وهل يمكن أن يعطى للعولمة معنى

إضافيا بكونها إسهاما في مجال اكتشاف الحضارات والثقافات الأخرى ومعرفة حساسياتها المختلفة [49].

وعلى الرغم من التباين والتمايز الذي يظهر بين المجتمعات البشرية على اعتبار أن كل مجتمع يبني ثقافته وينتجها على نحو خاص به مكانيا وزمانيا، ويكتسب خصوصية من بيئته ومحيطه ، فإن هذه الثقافة تتسم بخاصية أساسية هي قابليتها للتنوع والثراء والتعدد، ذلك أن التواصل بين الثقافات المختلفة أمر له أهميته. والمجتمع بطبيعته له قابلية للتنوع والتغير، وهذا ما أدى إلى تباين أشكال الحياة وصور التعبير عنها، كما أن التباين بين المجتمعات في أسلوب الحياة، لا يشكل خطرا بل عاملا مساعدا على التفاعل بين مختلف المجتمعات والثقافات [50].

وبالإضافة إلى هذا، هناك تجليات سياسية للعولمة تظهر أساسا في الدعوة إلى الديمقراطية والتعددية واحترام حقوق الإنسان، ومما لا شك فيه، فإن الثقافة العربية المعاصرة في حاجة إلى عملية إحياء شاملة حتى تصبح قيم الديمقراطية والتعددية واحترام حقوق الإنسان من بين المبادئ الرئيسية التي تصدر عنها، خصوصا وأننا شاهدنا ممارسات عربية منكرة لكل هذه المبادئ في العقود الخمسة الماضية بل عدوانا صريحا عليها من خلال ممارسات نظم الحكم العربية الاستبدادية، ومحاولة القضاء على التعددية أيا كانت صورها، والاعتداء المنظم على حقوق الإنسان [51].

ومعنى ذلك أن الثقافة العربية لكي تعيش وتحيا في عصر العولمة عليها أن تتحول وتتغير وتنطلق من قيود الاستبداد إلى آفاق الحرية الرحبة .

ويحتاج هذا الهدف حتى يتحقق إلى جهود المفكرين ومبادرات السياسيين وتأييد جموع الشعب العربي الذي ينبغي أن يدخل بقوة دائرة المشاركة السياسية من أوسع أبوابها.

ونأتي أخيرا للعولمة الثقافية والتي تسعى من خلال خلق ثقافة عالمية عن طريق توحيد الآراء في المسائل العالمية، وفرض أذواق موحدة، وعن طريق سوق استهلاكية عالمية ليس لها سابقة، أن تغير من العادات المحلية، أو تنزع بالناس إلى العالمية في الفكر والسلوك، وفي هذا المجال بالذات تثار مخاوف شتى عن تهديد هذه الثقافة العالمية للخصوصيات الثقافية ومن بينها الخصوصية الثقافية العربية... ومن هنا تأتي أهمية تأكيد الثقة بالذات في مجال التفاعل مع التجليات المختلفة للعولمة [52].

وعملية العولمة هذه التي تشير إلى تمدد التداخل الثقافي العالمي يمكن إدراك أنها تؤدي إلى نشأة كيان عالمي يعرف بأنه: "نطاق من التفاعل والتبادل الثقافي المتواصل"[53]، إنها عملية تقوم فيها سلسلة من التدفقات الثقافية أولا، بإفراز تجانس ثقافي وفوضى ثقافية في آن، وذلك بربط جيوب من الثقافة المتجانسة نسبيا بعد أن كانت منعزلة ، وهو ما يؤدي بدوره إلى إفراز صور أكثر تعقيدا للآخر وعلى إيجاد ردود أفعال داعمة للهوية، وثانيا، بإفراز ثقافات عابرة للقوميات ، وهو ما يعد ثقافات ثالثة أصيلة تتجه إلى ما وراء الحدود القومية . ويشير أبادوراي **appadurai** إلى أن تعقيد التدفقات الثقافية العالمية التي تجري حاليا يلقي بظلال من الشك عن استمرارية جدوى أنماط الهامش والمركز [54].

و الآن كيف يمكن لنا أن نحمي هويتنا الثقافية في عالم العولمة الكونية في المستقبل؟ الرد على ذلك يكمن في ضرورة تطوير ثقافتنا المحلية والوطنية حتى تثري الثقافة العالمية، أي أن تطوير ثقافتنا فيه تدعيم للقيم العالمية. ولعل المرتكز الأساسي في هذا التطوير

يعتمد على الحضارة العربية الإسلامية في وجهها الصحيح وليس الوجه المحّرف إذ يتعمد البعض من أبنائها وخصومها تشويه صورتها، تلك الحضارة التي تدعو وتدعم الحرية والتعددية واحترام آراء المواطنة النشطة والأخلاقيات المقبولة في مجتمعها والشفافية والمسؤولية والانفتاح والتسامح **tolerance** (55).

وتعد تجليات العولمة الثقافية هي الأخطر على دول العالم الأقل تطورا ، التي تأتي ضمنها الدول العربية، فهناك إشكاليات متعددة في هذا الشأن وتدور كلها حول أي ثقافة عالمية يمكن أن تسود وهل الكوكبية تلغي الخصوصية؟ ومن هو القادر على خلق قيم ومعايير ومعتقدات موحدة على مستوى العالم؟ وهل يمكن تأقلم الثقافات المحلية مع ثقافة العولمة (الآخر) القادرة -بما تلك من آليات- وقوى على ضبط سلوكيات الشعوب على اختلاف وتنوع ثقافتها (56).

ويبدو أن الطريق إلى العالمية والكونية الحضارية هو طريق محلي في المقام الأول كما يقول"سالم ساري"، تتهيأ له كل ثقافة بأهليتها الفعلية والممكنة، وتسلكه الثقافات جميعا بأهمية الاختلاف المؤدي إلى الائتلاف الذي يقود إلى التكامل، وبالحوار والتواصل لا بالهيمنة والإقصاء (57).

ولكن الغرب لم يجعل في الممارسة الفعلية، من العولمة ذات المعايير والمستويات الحضارية أساسا، مجالا مفتوحا لتقييم الإنجازات الثقافية، الخاصة والمختلفة ، ولم يتخذ منها مناسبة لتحديث الإسهامات المغايرة وترقيتها إلى مستويات عالمية، وإنما جعل من العولمة سبيلا عريضا لإرغام الثقافات غير الغربية على التوقف عن تطوير تجاربها بإثراء التجربة الإنسانية،وجعلها مضطرة لاستنساخ التجربة الغربية، والتطابق مع شروط الغرب الحضاري، والسير في سياقه ، فاعتباره النموذج الكوني المتفرد في التجربة والمرتبة

والقيمة، فلم يكن السباق نحو العولمة حقيقة سباقا تنافسيا حرّا تنمو فيه الثقافات جميعا بتلقائية واستحقاقية، وإنما طريق مشروع للغرب لاختراق الخصوصيات الثقافية، والنفاذ بقيمة الثقافة الغربية عبر الثقافات الضيقة المغلقة والخجولة والمترددة[58].

وإذا كانت العولمة الاقتصادية ستحقق التقارب والتمازج بين الأمم فإن الثقافة يجب أن لا تتخلى عن هذه المهمة، وهي مؤهلة إلى التفاعل مع الكيانات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية حتى تدفع أسس المبادئ الإنسانية الثابتة، مع المحافظة على الخصوصية الوطنية والإرث الحضاري للمجتمعات الإنسانية ، ولا يمكن للثقافة مسّ جميع جوانب الحياة، بل لابد أن تواكب هذه التحولات وأن تفك عنها العزلة والانغلاق[59].

إن السعي من أجل تقارب الحضارات وربط الثقافات وتعزيز الهوية العالمية وربما أيضا خلق عالم بلا حدود ثقافية هو مجرد وجه واحد من الوجوه العديدة للعولمة الثقافية ، ذلك أنه بقدر ما أن التوجه العام هو نحو تقارب الثقافات والحضارات، فإن العولمة الثقافية يمكن لها أن تتجه نحو صراع الحضارات ونحو الهيمنة الثقافية لثقافة واحدة على سائر الثقافات، ونحو نشر الثقافة الاستهلاكية وجعلها الثقافة الأكثر رواجا على الصعيد العالمي، فالعولمة الثقافية التي تمهد الطريق حاليا لترابط المناطق الثقافية بإمكانها أيضا أن ترسخ انقسام العالم إلى مناطق حضارية مغلقة ، وتزداد انغلاقا ، وتستعد لمواجهة بعضها البعض[60].

والعولمة الثقافية لا تعني مجرد صراع الحضارات أو ترابط الثقافات، بل إنها توحي أيضا باحتمال نشر الثقافة الاستهلاكية والشبابية عالميا، فلم يحدث في التاريخ أن أصبح العالم مقبلا على رموز ومعطيات وسلع الثقافة الاستهلاكية والشبابية كما هو مقبل عليها

الآن، كما أنه لم يحدث في السابق أن تمكنت الثقافة الاستهلاكية من الوصول إلى قطاعات واسعة من الأفراد والشعوب من كل المستويات الاجتماعية وفي كل القارات[61].

ولقد كان تعرض الأقطار العربية والإسلامية إلى الاستعمار وكفاحها للحصول على حرياتها واستقلالها مدعاة لصراع حاد بين ثقافتين أصيلة ودخيلة : أصيلة تستمد من التراث العربي الإسلامي ما يحمل مقومات الهوية الوطنية والقومية، ودخيلة تستمد من ثقافة الآخر المستعمر تقاليده. لذا كان هذا الصراع تجليا لما ولده الواقع في النفس العربية من شعور بالتخلف عن أمجاد الماضي والعجز عن مسايرة تطور الآخر في حاضره ومستقبله، وقد أفرزت القيم والأفكار العربية مجموعة من الممارسات في الواقع العربي كشفت عن رغبة للخضوع لثقافته طمعا في اكتساب معارفه[62].

و قد جعل هذا الميل إلى التبعية المنظومة الثقافية العربية تعاني من التشتت والتوزع بين ثقافات مختلفة وأهواء متعارضة والوقوع في هيمنتها ، فلم تستطع أن تستثمر مقومات الوحدة الثقافية التي تملكها في تخليص الحس القومي مما ينتابه من إحباط ... فالحرص على مواكبة الغرب في تقدمه وتطوره أضعف سعينا إلى تحصين المستقبل المتحدي برهاناته التقنية والثقافية ، كما أن الحرص على تجاوز التبعية وتحقيق الاستقلال الفكري أضعف قدراتنا بما فرضه علينا من إحساس مبالغ فيه بالدونية الحضارية تجاه الآخر [63]. وهذا ما جعل البحث العلمي رغم تقاليده العريقة في مناهجنا العربية والإسلامية وما يحمله من قيم ومثل وجدواها وفعاليتها عبر التاريخ – يتعثر في مساره –

ولذلك فإن البحث العلمي في الوطن العربي يستطيع أن يكتسب من جديد فعالية مؤهلاته المعطلة إذا توافرت له العوامل الآتية [64]:

أ- عقلنة الاستهلاك لما نستورده من الغرب ، وعدم المبالغة في تقدير تفوقه، فعقلنا العربي قادر على استيعاب ثقافته لأن الحوار الحضاري خاصية إنسانية .

ب- إعادة الاعتبار للمجتمع لأنه سلطة للتنمية لا يمكن أن تمارس إلا بتمكينه من أسباب التعليم والحرية والأمن.

ج) مواجهة التحديات التي تراد صيانة مكونات الهوية بالكثير من الشجاعة والصبر وبالتحلّي بأسس الحوار والتعايش.

رابعا: النزعة العنصرية الإستعمارية والاستعلائية للآخر الغربي:

من معوقات الحوار مع الآخر النزعة العنصرية الاستعمارية والاستعلائية لهذا الآخر الغربي حيث إن عقدة الاستعلاء هذه تعتبر أعظم ما يميز الفكر الغربي وممارسة أفراد مجتمعاته وقاداته ، فهو يقصر اهتمامه بالإنسان الغربي ويهمل غيره من البشر الذين لا يمثلون في نظره إلا مستوى أدنى ويحصر الحضارة والمدنية على الأول ويقدمه كنموذج لغيره في كل مجالات الحياة من أفكار وملبس وأسلوب وتعامل ، ولا ينظر الغرب إلى الثقافات الأخرى إلا بمعاييره الخاصة، وفي هذا الصدد يقول شيد في كتابه"روح الحضارة" "كل ما نشأ ونشئ في داخل الحضارة الغربية لا يستطيع أن يفهم الحضارات الأجنبية إلا من وجهة نظره هو الخاصة شاء أو لم يشأ"(65).

وذهب البعض إلى القول: "إن أعلام الفكر الغربي كافة لم يخرجوا من قبضة هذه الإيديولوجية أو الاستعلاء، فمثلا كان فولتير يعتقد أن الزنوج بالذات غير قابلين لأي تحضر حقيقي، ونظرة الاستعلاء هذه كانت شائعة في كتابات"هابزولوك، وروسو،

ودافيدهيوم"، إذ كانوا يكتبون بصراحة أن الحضارة الغربية احتكار للبيض، "وسان سيمون" كان يرى أن أوروبا المنظمة وفق طريقته ستمد نعمة التقدم إلى العالم وتملأ الأرض بسكان من العنصر الأبيض الذي هو خير الأجناس الأخرى، و"هيجل" كان يضع الشرق في أدنى درجات سلمه ، أدنى من الإغريق والرومان[66].

ويرفض الغرب أن تقوم حضارة أخرى تقارع حضارته وتتفوق عليها، فهذا المؤرخ "ارنولد توينبي"يصرح في كتابه" الإسلام والغرب والمستقبل "بتخوفه من قيام الحضارة الإسلامية من جديد بوظيفتها التاريخية بسبب قيام الغرب بنشر حروب عنصرية بين حين وآخر على البلاد الإسلامية. بالإضافة إلى هذا أكد رئيس الوزراء الإيطالي السابق برلسكوني) هذه النظرية العنصرية والاستعلائية ، منذ سنوات فقط، بالقول:"الغرب سيستمر بالظفر بالشعوب الإسلامية كما فعل مع العالم الشيوعي ، ومع جزء من العالم الإسلامي حتى وإن بقي جزء منه متوقفا عنه **1400** سنة مضت" [67]، وصرح في مؤتمر صحفي أذاعته التلفزيونات الإيطالية في **2001/09/26** بالقول:"الغرب المسيحي يفخر بفوقيته على الحضارة الإسلامية التي لا تحترم حقوق الإنسان"[68].

ويضاف إلى هذا ما يتعرض له الدين الإسلامي والقرآن الكريم والرسول محمد ﷺ من إساءة وتشويه وسب وقذف من طرف رجال الدين المسيحيين والصحفيين... وغيرهم، فكيف يمكن إجراء حوار موضوعي وعقلاني يخدم الطرف الإسلامي مع الآخر الغربي الذي يكن له العداء ويتربص به للانقضاض عليه ويمنعه من الاستفادة من منجزات الحضارة المعاصرة، ويقوم بغزو أراضيه لاحتلالها والسيطرة على ثرواته وخيراته، ومقدساته، إضافة إلى المعاملة العنصرية التي يعامل بها أفراد الجاليات العربية والإسلامية في البلدان الغربية، واتهامهم بالإرهاب ومعاداة القيم الحضارية والإنسانية.

ومما زاد من هذه الإساءة الحرب الهجومية التي تشنها الولايات المتحدة الأميريكية وحلفاؤها ضد ما يسمونه"الإرهاب العالمي"منذ هجمات 11 سبتمبر 2001 على الولايات المتحدة الأمريكية.

خامسا: الاختراق الإعلامي الغربي للوطن العربي والإسلامي.

من معوقات الحوار بين الأنا والآخر الاختراق الإعلامي واختلال التوازن في تدفق الأنباء والمعلومات بين الطرفين وهو ما يعرف بالتدفق الحر للأنباء والمعلومات من جانب واحد، ويؤدي إلى هيمنة الإعلام الغربي والأمريكي والصهيوني على الإعلام العربي والإسلامي، مما يضع الدول العربية والإسلامية في تبعية إعلامية وثقافية للدول الغربية، وهذا يهدد ثقافات هذه الدول وخصوصياتها مثل اللغة والدين والقيم والتاريخ وطرائق الحياة وأنماط التفكير لمواطنيها [69].

ولقد خلصت ندوة الاختراق الإعلامي للوطن العربي التي عقدت بالقاهرة يومي 23 و 24 نوفمبر 1996 ، إلى أن مصطلح الاختراق الإعلامي يشير إلى حالة من التفاعل أو الصراع بين ثقافة الأنا وثقافة الآخر أو بين ثقافة الشرق وثقافة الغرب، وأنه يمكن إرجاع أسباب الاختراق الإعلامي للوطن العربي إلى مجموعتين من الأسباب: داخلية وخارجية. فالأسباب الداخلية متعلقة بضعف البنى الثقافية والاجتماعية والسياسية ، وأسباب خاصة بالقائم بالاتصال العربي. أما الأسباب الخارجية فتتعلق بالتطورات والطفرات الهائلة في مجال تكنولوجيا المعلومات واتساع الفجوة الحضارية بيننا وبين الدول المتقدمة، الغرب وأمريكا بالذات. ولذا فنحن بيئة مستقبلة للمعلومات والإعلام والثقافة، بحكم الظروف السابقة أكثر من منتجين لها [70].

واهتمت الندوة بضرورة التفرقة بين التفاعل الحضاري الثقافي الإعلامي الصحي الذي يضاف إلينا، وبين الاختراق الذي يشوه هويتنا وينقل إلينا مفاهيم مغلوطة وقيما سلبية، وضرورة التأكيد على مسؤولياتنا الذاتية في تطوير إعلامنا واختيار المكون الخارجي الجيد فيه، بعيدا عن تصور أن السبل التشريعية والأمنية يمكن أن تكون كافية في هذه المواجهة (71).

وأهم التحصينات التي يمكن أن نواجه بها الاختراق الإعلامي الغربي هي: الديمقراطية الإعلامية والحق في الاتصال والحصول على المعلومات، وإضفاء المصداقية على المضمون الإعلامي المحلي وإكسابه الدقة والوضوح، وإفساح الحرية للقائمين بالاتصال وتخفيف القيود المفروضة عليهم، بل إلغاؤها والتنشئة الإعلامية السليمة لهم، وغرس بذور الانتماء داخل المتلقي المحلي ومحاولة تقوية اتصاله بالمجتمع المحلي (72).

وقد قدم المعهد الأوروبي لدارسات الإعلام ، في تقريره السنوي عام 2002 ، وصفا لأداء وسائل الإعلام التي تمثل ثقافة بعينها ، إبان الصراعات والأزمات المختلفة، حيث تتجه تلك الوسائل صوب إنتاج سلسلة من الرسائل التي تحمل صورا ذهنية ونمطية تتسم بالعدوانية نحو الطرف الآخر، ويؤكد ذات التقرير أن ذلك السلوك يستهدف أساسا تدعيم وتأكيد الهوية المعنية في صراعها مع الآخرين الذين يتم تصويرهم بوصفهم أعداء (73).

ويؤكد الباحثون في مجال دراسات الاتصال السياسي على أن إدراك القائم بالاتصال ووعيه التام بالسمات المميزة للهوية الثقافية المعنية التي يعبر عنها ، ويجعله قادرا على طرح التقارير والمواد الإخبارية وصياغتها بشكل وظيفي يدفع بدوره الأفراد نحو الانخراط في الأحداث والقضايا المهمة والتفكير فيها بوصفها تخص آخرين ممن تجمعهم

بهم وشائج الهوية المعنية بما يدعم بدوره مشاعر الانتماء والتفاعل داخل المرجعية الثقافية المعنية [74].

سادسا: التفاوت في امتلاك تكنولوجيا الاتصال والمعلومات:

من معوقات الحوار بين الأنا والآخر الهوة الكبيرة بين ما يحوزه طرفا الحوار من إمكانيات ومعدات الاتصال والمعلومات الحديثة وتقنياتهما مثل الحاسبات والمعلومات الرقمية والالكترونية وشبكة الانترنت، فمجتمع المعلومات والمعرفة المعاصر يعتمد أساسا على التطورات التكنولوجية المتسارعة في الحسابات والاتصالات المتعددة والرقمية، والتي أفرزت مجتمع المعلومات الكوني، والذي ترى فيه دول الشمال المتقدمة أساس تكامل اقتصادياتها مع اقتصاديات الدول النامية وفي مقدمتها الدول العربية والإسلامية وتكامل الثقافات وزيادة التفاعل المعلوماتي والاجتماعي، والحوار بين دول العالم المتخلفة ، لكن دول الجنوب المتخلفة ترى عكس هذا الرأي ، في الغالب إذ ترى أن هذه التقنيات وسائل الدول المتقدمة لتصريف منتجاتها بناء على تعميم ثقافة الاستهلاك، واستخدام القروض والمعونة الفنية لا في التنمية الحقيقية لهذه الدول المتخلفة -العربية منها- ولكن في زيادة قدرتها على شراء المنتجات والخدمات التي تأتي من الدول المتقدمة، فضلا عن تغريب الثقافات الوطنية وتفكيكها عن طريق وسائل إعلام احتكاريّة تعتبر المصدر الأساسي للأخبار ، فضلا عن تقديمها لبرامج الترفيه والتسلية التي تتوجه للغرائز والعنف ونشر الثقافة الضحلة وترسيخ التفوق الغربي والحرية حسب مفهوم الغربيين لها[75].

وما يسترعي الانتباه بالنسبة للمحتوى الرقمي باللغة العربية مقارنة بمختلف الأرقام العالمية هو ما يلي:

زاد عدد المستفيد من الأنترنت في العالم بدرجة كبيرة بين **1999** و**2002** حيث وصل إلى (**650**) مليون مستفيد عبر العالم . وعلى الرغم من أن المتحدثين باللغة العربية يمثلون حوالي **5%** من سكان العالم ، إلا أن المستفيدين العرب من الأنترنت يصل إلى **0.9 %** فقط من المستفيدين منه بالعالم في سبتمبر **2002**، بالإضافة إلى أن تطبيقات الأنترنت في العالم العربي من الناحيتين النوعية والكمية لا تعكس الاعتقاد بأن استخدام تكنولوجيا المعلومات والاتصالات تؤثر بقوة على عملية التنمية، وأخيرا فإن عملية اختراق الانترنت في دول غرب آسيا هو **2.6%** وهي نسبة متدنية للغاية مقارنة بالمتوسط العالمي وهو **10.5 %**.

وخصص تقرير التنمية الإنسانية العربية لعام **2003** والصادر عن المكتب الإقليمي للدول العربية، فصلا عن حال المعرفة والافتقار إلى المعلومات في البلدان العربية وتطرق إلى التحديات التي تواجه وسائط الإعلام العربية وخلص فيه إلى بعض المؤشرات الهامة التي أعقبت عرضا تحليليا وتقييميا للواقع الراهن في العالم العربي وما يقدمه في نقل المعرفة وحفز اكتسابها سواء بالنسبة لوسائل الإعلام التقليدية (الصحف، الراديو، التلفزيون) أو وسائل الإعلام المستحدثة (الأنترنت) " يمكن أن ينتهي إلى القول بأن وسائل الإعلام العربية بأوضاعها الراهنة كما ونوعا تواجه عددا من معوقات نشر المعرفة، خاصة في ظل التطورات السريعة والمتلاحقة في ثقافات الاتصال والمعلومات وتلك الطفرة الكبيرة والانفجار المعلوماتي الذي شهده عالمنا المعاصر في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين"(77).

ويتضح لنا مما سبق أن الحوار بين العرب والمسلمين والغرب تعترضه جملة من المعوقات تخص الطرفين، لذلك يجب إدراكها ووضعها في الحسبان عند التطرق للموضوع

أو الخوض فيه نظريا وعمليا، حتى لا نسبح في عالم الأوهام بعيدا عن الواقع المعيش ونوع العلاقات التي تحكم طرفي الحوار منذ مئات السنين .

الهوامش

1- أحمد محمد يوسف وهدان، حوار الأديان في إطار التحولات والتغيرات المحلية والإقليمية والعالمية، مجلة المعيار ، العدد الثالث، نوفمبر 2002، ط 254.

2- القاموس المحيط، 486.

3- المجادلة، الآية: 1

4- محمد إبراهيم السامرائي، الحوار من المنظور الإسلامي، مجلة الصراط ، السنة الثالثة، العدد السادس، سبتمبر 2002، ص 87.

5- سورة الكهف، الآية: 37.

6- محمد إبراهيم السامرائي، مرجع سبق ذكره، ص 87.

7- سورة النحل، الآية: 125.

8- أحمد محمد يوسف وهدان، مرجع سبق ذكره ، ص 255.254.

9- محمد خاتمي، حوار الحضارات، ترجمة سرمد الطائي، دمشق، سورية، دار الفكر، 2003، ص 41.

10- نفس المرجع.

11- المرجع السابق، ص 42.

12- نعيمة ادريس ، دعوة الكنيسة للحوار والرد الإسلامي عليها، مجلة المعيار، العدد الثالث، نوفمبر 2002، ص 217.

13- الكهف، الآية: 34.

14- الكهف، الآية: 37

15- المجادلة، الآية: 1

16 العنكبوت، الآية: 46.

17- السعيد عليوان، الحوار الإسلامي المسيحي من خلال أعمال مؤتمر جلين آيري (كلورادو) التبشير

1978م، مجلة المعيار العدد الثالث، نوفمبر 2002، ص 205، 206.

18- نعيمة إدريس ، مرجع سبق ذكره، ص 218.

19- الأنعام، الآية: 150.

20- النساء، الآية: 164.

21- بشير عز الدين كردوسي، حوار الحضارات : الأسباب والشروط، مجلة المعيار، العدد الثالث، نوفمبر 2002، ص 240.

22- المرجع السابق، ص 240.

23- سورة النحل، الآية: 125.

24- محمد إبراهيم السامرائي، مرجع سبق ذكره ص 89.

25- نعيمة ادريس، مرجع سبق ذكر ه ص 219.

26- ماجد الغرباوي ، حوار الحضارات والواقع والأهداف ، مجلة التوحيد عدد 86، السنة 15، شباط 1997 ، ص 7، عن نعيمة ادريسي ص 219.

27- المرجع السابق ، ص 5 ، عن نعيمة إدريسي، نفس المرجع، ص 219

28- نعيمة إدريسي، نفس المرجع، ص 220.

29- محمد إبراهيم الفيومي، رسالة في الحوار الفكري بين الإسلام والحضارة القاهرة : عالم الكتب 1981، ص 37-38.

30- محمد محفوظ، الإسلام ، الغرب وحوار المستقبل، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي ، الطبعة الأولى 1998 ص 20

31- المرجع السابق، ص 21

32- المرجع السابق، ص 22

33- محمد خاتمي ، مرجع سبق ذكره ص 137.

34- المرجع السابق، ص 138.

35- نفس المرجع.

36- أحمد محمد يوسف وهدان، مرجع سبق ذكره ص 266-267.

37- محمد محفوظ ، مرجع سبق ذكره، ص 52.

38- المرجع السابق ، ص 52-53.

39- السيد ياسين ، حوار الحضارات: الغرب الكوني والشرق المتفرد،القاهرة:الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2002،ص24.

40- محمد محفوظ،مرجع سبق ذكره،ص54.

41- المرجع السابق، ص53.

42- المرجع السابق، ص54.

43 - نفس المرجع.

44- المرجع السابق، ص55.

45- المرجع السابق، ص58.

46- المرجع السابق، ص59.

47- أحمد محمد يوسف وهدان، مرجع سبق ذكره،ص 252-253.

48- علي ليلة، التراث والتغيير الاجتماعي، عن أحمد محمد يوسف وهدان، المرجع السابق،ص 253.

49- السيد ياسين، حوار الحضارات،مرجع سبق ذكره ،ص22.

50- مخلوف بوكروح، العولمة والاتصال وهم التبادل الثقافي، المجلة الجزائرية للاتصال العدد:18،يناير، يونيو2004،ص79.

51- السيد ياسين العملية، والعولمة، القاهرة، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية فبراير2001، ص312-313.

52- المرجع السابق، ص313.

53- مايك فيدرستون، ثقافة العولمة:القومية والعولمة والحداثة،ترجمة عبد الوهاب علوي، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب،2005 ،ص7

54 المرجع السابق،ص8.

55- أحمد أنور بدر،مجتمع المعلومات والمعرفة:المصيدة الكونية للدول النامية،الإذاعات العربية، العدد الثالث،2005،ص57.

56- أحمد مجدي حجازي،العولمة وتهميش الثقافة الوطنية،رؤية نقدية من العالم الثالث،عالم الفكر،عدد:2، أكتوبر ديسمبر1999 ،ص139.

57- سالم سارة،اشكالية الثقافة والحضارة،مجلة البصائر،المجلد:2،العدد:1،آذار1998،ص104.

58- المرجع السابق،ص104.

59- نصر الجويلي،الثقافة العربية في مواجهة تحديات العصر،مجلة الهداية،العددان:1،2،السنة:25،2000ص84-85.

60- عبد الخالق عبد الله،العولمة:جذورها وفروعها وكيفية التعامل معها،عالم الفكر،المجلد الثامن والعشرين،العدد الثاني،أكتوبر-ديسمبر1999،ص78.

61- المرجع السابق،ص78-80.

62- مانع سعيد العتيبة،العوربة والعولمة،الطبعة الأولى،أبو ظبي:دون ذكر دار النشر.2002،ص331.

63- المرجع السابق،ص331-332.

64- المرجع السابق،ص333.

65- محمد عوض الهزايمة،الإرهاب بين حضارتين: الحضارة الغربية المعاصرة،و العربية الإسلامية:دراسة مقارنة،مجلة الصراط،السنة الثالثة،العدد السادس،سبتمبر2002،ص225.

66- المرجع السابق، ص226.

67- المرجع السابق، ص226.

68- نفس المرجع.

69- محمود عبد الرؤوف كمال، مستقبل الإعلام العربي كما تعكسه دراسات قضايا الغزو والثقافي والاختراق الإعلامي:دراسة تحليلية مقارنة من المستوى الثاني، المؤتمر العلمي السنوي الحادي عشر، مستقبل وسائل الإعلام العربية،الجزء الرابع،3-5 مايو2005،كلية الإعلام-جامعة القاهرة، ص1546.

70- المرجع السابق،ص1558-1559.

71- المرجع السابق،ص1560.

72- المرجع السابق،ص1559.

73- خالد صلاح الدين حسن علي، اتجاهات النخبة المصرية نحو إدارة القنوات التلفزيونية الإخبارية للأزمات العربية: في إطار مدخل إدارة الصراع ، المؤتمر العلمي السنوي العاشر " الإعلام المعاصر والهوية العربية "، الجزء الثالث 4-6 مايو 2004، ص 258.

74- المرجع السابق، ص 259.

75- أحمد أنور بدر ، مرجع سبق ذكره ص 53.

76- المرجع السابق، ص 56.

77- محمد حمدي ، الواقع الحالي لتوظيف تكنولوجيا المعلومات في العالم العربي، الإذاعات العربية : 3 ، 2005، ص 82.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى
وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ
عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾

الحجرات13